نظرة جديدة

فى «ليالى الملاح التائه»

بمناسبة طبعة الجديدة

للأديب حسين محمود البشبيشى

من حيوية الفن الحق أن يتجدد أثره فى النفس برغم تقادم العهد ، بما يبعث فى نفس المتأمل من أحاسيس . وإنى لأجد اليوم فى الحديث عن « ليالى الملاح التائه » نشوة المقبل على شىء جديد وما ذاك إلا لتجـدد ما يهيجه الديوان من بوارق الحس . وسنحاول فى هذا المقال أن نسبر غور هـذه النفس الشعور ونرجع عبقريتها الفنية إلى أسسها الأصيلة . تنهض شاعرية صاحب الليالى على أساسين : سعة النقل المطلع ، ووضاءة الشعور الفنى . فإنك لتلمح أثر العامل الأول فى مسايرة الشاعر لكل ما يضطرب فى عالم الإنسانية من أفراح وأحزان . فقد طلع علينا الشاعر الفنان فى كثير من المناسبات وسجل الكثير من المرائى الفاتنة ، وإن ذلك ليظهر جلياً فى قصائده : مصرع الربان ، وبحيرة كومو ؛ وليس أدل على أصالة هذا الأساس فى نفسه من مسايرته له فى كل الأحايين ، وما عهدنا بقصائد : عيد الميلاد ، وستالينجراد ببعيد ! ... مثل هذا يدل على أن الشاعر قد نزع قيود الشخصية المحدودة وحلق فى جو الإنسانية الفسيح فأطلع طائره يمجد مصرع الربان ، وداعب قيثاره يخلد ثبات ستالينجراد ، وذاب لهفة وتقديراً وإعجاباً بفتنة فينسيا . ورأى بحيرة كومو وراقه منها :

بهج فى كنوزها للمحبين مـدّخر
بابل أم بحـــيرة أم قصور من الدرر
أم رؤى الخلد فى الحيـــاة تمثلن للبشر

هاله السحر منها فهتف :

لا تقل أخصب الثرى فهنا أورق الحجر !!

وما كان ليستطيع أن يقول سوى هذا وهو العابد للجمال والقائل :

هاهنا يشعر الجماد ويوحى لمن شعر !

تلك لمحة تكشف عن انطلاق شاعرنا من قيود البيئة المحدودة ونظرته إلى مفاتن ومباهج الكون كوحدة تنعكس فى قلبه الشاعر !

أما الأساس الثانى فهو وضاءة الشاعرية التى توشك أن تطبعه بطابع خاص يكسب قصيده عذوبة فى الجرس ، ورقة فى الصياغة ، وأناقة فى اختيار الكلمات التى تطالعك كالعروس فى جلوتها . ومن منا لم يطرب لروعته الموسيقية وفتنة التركيب وحسن الاختيار الموفق للبحر الذى نسج منه الجندول وروعة اختتامه بعض أبياتها بكلمات توشك أن ترقص من رقة النغم ... مثل «خمره ، ثغره ، عبره ، إثره ...» إن القارئ ليوشك أن يجد نفسه مترنماً مرتلاً لتلك الأبيات التى تتوجها هذه الكلمات فى غير ما شعور وبغير إرادة

تلك هى الحيوية الموسيقية عند ملاحنا التائه . وإنها لتملك عليه حواسه وتنظمها وتسيرها فتراه وقد تأمل فى مظاهر الجمال ، وبواعث الشعر تتوافر على حسه الشاعر ، وتتوالى على قلبه العواطف فلا يسعه إلا أن يعبر عن هذه العواطف المتألقة المتدفقة فى أنغام تجمع بين صدق العاطفة وتدافع الحس ... وهو حينئذ يحسن أن يعبر فى مقاطع رنانة قصيرة تعطى القارئ فكرة سرعة الانتقال النفسى الوجدانى ... أنظر إليه وقد تدفق قائلاً فى عاطفة متدفقة تظهر جلية فى تدافع النغمات فى كلمات ... (دعوات) و (فرحة) و (نشيد) ...

مهرجان ممالك الشرق فيه دعوات ، وفرحة ، ونشيد !!

وإن ذلك ليظهر أيضاً فى قوله :

وسلمت يا مولاى للوطن الذى بك يستظل ، ويستعز ، ويسلم

فقد تزاحمت وتواترت الخواطر والأحاسيس فهتف قائلاً « بك يستظل » ، ثم تدفق مغرداً « ويستعز » ، ثم صاح منشداً « ويسلم » . ومن هذا قوله :

صوامع رهبان ، محاريب سجّد هيا كل أرباب ، عروش قياصر

وثمة ناحية أخرى جديرة بالتأمل أخطأ فيها بعض الناس ... وهي ميل ملاحنا التائه إلى تكرار بعض الكلمات لا لشيء مما جعل بعض مراض القلوب يتوهمون أن ذلك ... في التخيل وضيق في الأفق ... وما ذلك من الحق في شيء إننا لننظر إلى الأمر نظرة التأمل فنقول : التكرار عند ... تكرار يوشك أن يقتصر على مرتين أو ثلاث ، ولا تعدّه أرقام فهو طليق طلاقة الحس المعبر ... والأول من مظاهر القصور ، والثاني نعتقد أنه من آثار الانس في مظهر التعبير وجوهر الشعور . وعلى طه في تكراره فنان يس ... ويعجب بفنه ؛ وهيهات أن يستطيع الخلاص من قيد ... وإذا كان في قرارته حبٌ لشيء أو معنى فلا أقل من أن ... مردداً له مستطيباً لتكراره ... ولكنه حين يكرر ... في عرض مشاعره ويلبسها ثوباً جديداً تستشف من خلاله ... بوشائج قوية مع أصولها الثابتة في أغوار نفسه . ولعل المسألة تظهر جلية إذا علم القارئ أن أهم صفة في خلق شاعرنا هي الوفاء ... فما يستغرب إذاً منه الوفاء لبعض أحاسيسه ... ! وما تلك الأحاسيس والصور التي يطيب للملاح أن يكررها ... ؟ هي : (الحلم ، الأشباح . الزورق . الكأس) نعم إن التأمل ليهوله كثرة ما ردد شاعرنا المبقري هذه الكلمات ... لكننا بقليل من التأمل نقول إن هذه الكلمات وإن اختلفت في الدلالة فقد اتفقت في الباعث الأصيل لها ... وإليك الدليل ... إن الانفعال الذي تحسه عند تصورك الحلم وانطلاقه هو بالضبط ما تحسه عند توهمك الشبح وتهاويله . وما يصدق على الأحلام والأشباح يصدق على الكأس وعصيرها . وهل كانت الكأس إلا الوسيلة للانطلاق في جواء سحيرة فسيحة ؟ وإن ما يصدق على الأحلام والأشباح والكأس ليصدق على حيرة الزورق ، بل حيرته لتعطيك رهبة الرياح الهوج والأمواج الرعن ... هذا وإن القارئ بعض هذا التكرار الفني الجميل الذي يرتكز على طبيعة ... فقد كرر كلمة الحلم قائلاً :

(حلم مثلته في خاطري) ، (يا عروس البحر يا حلم الخيال) ، (غرقان في حلم عذب تسلسله) و (أحلام الليالي الكواعب)

وتكراره لكلمة الكأس (لو سقى مثواك بالكأس الصبيب) ، (هي الكأس مشرقة في يديك) ، (هيّ الكأس والوتر) . وتكراره لكلمة الزورق (وضمنا فيه زورق يجري) ، (يسري عليها للملائك زورق) ، (ترقب النيل تحت زورقه) .

... وثمة ناحية أخرى تلمحها خلال ديوانه وهي أن أصدق ما صاغه في حب وطنه كان وهو في غربة عنه ؛ وتلك بارقة نفسية عميقة تدلنا على أن الفاقد للشيء هو خير من يقدره ... أنظر إليه كيف تذكر النيل ومصر وهو على ضفاف (كومو) وفي جلوة الجندول بفينسيا . وبعد فلا يسعنا إلا أن نهتف أن هذا الشاعر المغرم بالأشباح والحيرة والشرود والأحلام والزورق خير مثال لتأثر الشاعر وتقيده بأحاسيسه الأصيلة ... أفلم يخضع لهذه الحيرة السابحة والأحلام والأشباح فأبى إلا أن يكون ملاحاً تائهاً ...

محمد محمود البشبيشي

سينما ستوديو مصر

ابتداء من الاثنين ١٥ مارس ١٩٤٣

والأيام التالية

يقدم

فانتازيا

رسوم متحركة بالألوان الطبيعية

س ت ٢٢٧٣ — ت ٥٩٦٩٥